٤ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

الحروف العربية

انتشر الاسلام بين الأمم فدخل الناس فى الاخوة الاسلامية وصاروا أمة واحدة ، واتخذوا اللغة العربية لسان الدين والعلم ، لا يكتبون غيرها

ولما حيّت لغاتهم على مرّ الزمان بجانب العربية كتبوها بالخط العربيّ الذى ألفوه ، وترك من كان ذا كتاب منهم كتابته الأولى . ولم يخسروا فى هذا شيئاً إذ كانت الكتابة العربية على علاّتها أوضح وأيسر مما كان عندهم

— ١ —

كان الفرس يكتبون بالخط الفهلوى ، وهو مشتق من الخط الآرامىّ القديم ، والخط الفهلوى مبهم مشكل . قال الأستاذ براون إنه يصدق فيه ماقاله أحد الفرنسيين عن الخطابة إنها فن إخفاء الأفكار ، يعنى أنه خط يخفى الألفاظ . ذلك بما تشابهت حروفه ، وبما اشتركت الأصوات المختلفة فى بعض الحروف . وقد أدّى هذا اللبس الى مالم يعهده التاريخ فى لغة أخرى . كان الكتاب يكتبون كلمة آرامية مكان كلمة فارسية خوفا من اللبس ، فاذا قرأوا نطقوا بالكلمة الفارسية غير المكتوبة ، وتركوا الآرامية المكتوبة . روى عن ابن المقفع أنه قال : إن فى اللغة الفهلوية ألف كلمة تقرأ ولا تكتب . وروى ابن النديم فى الفهرست من أمثلة هذا أنهم كانوا يكتبون كلمة « بسرا » الآرامية ويقرءون گوشت (لحم) بالفارسية ، ويكتبون « لحما » الآرامية ويقرأون نان (خبز) بالفارسية

ولم تكن الألفاظ الآرامية مقصورة على ما يستعار من لغة الى أخرى من الأسماء ، بل كان فيها أفعال وضمائر وإشارات . وكانوا يلحقون بالكلمات الآرامية خواتم فارسية الخ ، ومن أجل صعوبة الخط الفهلوى نذر القارئون فى ذلك العهد

فكان خيراً للفرس أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية لهذا ، وللأخوة العامة التى أدخلهم الاسلام بها حين مدّ ظله على الأمم وأراد أن يمحو الفروق بين بنى آدم

— ٢ —

وأما الترك فكان أكثرهم قبائل أميـــة لا تعرف قراءة ولا كتابة ، وتسربت الى طوائف منهم كتابات الأمم المجاورة . كتبت بعض الأسماء والألقاب التركية بالهيروغليفية الصينية فى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد . ولما أريد تنصير الترك النازلين على بحر الخزر فى القرن السادس ترجم لهم الكتاب المقدس ، وكتب بالحروف اليونانيـة . وكذلك كتبت التركية بالحروف اليونانية فى جهات الطونة ، وكذلك كتبت التركية بالعبرية ، والنسطورية ، والهندية ، والسلافية ، والأرمنية الخ الخ

وقد أثر عن جماعات من الترك ضربان من الكتابة يمكن أن يعدّا كتابة تركية . وهما الخط الأورخونى الذى دلت عليه الآثار التى عثر عليها حوالى نهر أورخون فى سيبريا ، والخط الأويغورى . والأول كتبت به تركية الشمال ، وبالثانى كتبت تركية الجنوب

فأما الخط الأورخونى فيرى أكثر العلماء أنه مشتق من الخط الآرامى القديم . وقد كتب به فئات من الترك من القرن الرابع الميلادى الى القرن الثامن . وهو مؤلف من ثمانية وثلاثين حرفاً ، أربعة منها حروف حركة ، وثلاثة منها مركبة . ويوصل به غالباً كلمتان أو ثلاث معاً . وأحياناً يستغنى بالحرف من الكلمة فتكتب (ت) للدلالة على آت (فرس) و (ز) للدلالة على آز (قليل) وهكذا . ولا ريب أن هذا الخط لا يقاس بالخط العربى وضوحاً ويسراً وكمالاً

وأما الخط الأويغورى وهو أحدث الخطين ، وأطولهما عهداً ، وأوسعهما انتشاراً ، فيظن أنه حل محل الخط الأول منذ القرن الثامن الميلادى . كتبت به أول الأمر ترجمة الكتب البوذية ، وبقى بين الأويغوريين وغيرهم من الترك ، بعد أن دخلوا فى الاسلام فكتبت به الدولة الخاقانية فى كشغر (٣٢٠ ـ ٦٠٩ هـ) والدولة الجنكيزية ، والايلخانية (٦٥٤ ـ ٧٤٤) ودولة آلتون أوردو فى قفجاق (٦٢١ ـ ٩٠٧) . وكتبت به بعض الكتب الاسلامية حتى القرن العاشر الهجرى . وهذا الخط مشتق من الخط الصُغْدى والصُغْدى مأخوذ من الآرامية أيضاً ، وهو أربعة عشر حرفاً يدل بعضها على أصوات مختلفة . وهو من

اللبس والعسر بحيث لا يقاس بالخط العربي أيضاً

فكان من نعم الاسلام أن بدل بهذين الخطين الخط العربي الذي صار خط الأمم الاسلامية جمعاء . ثم الآثار القليلة التي أثرت في الخطين الأورخوني والأويغوري في بقاع ضيقة ، وموضوعات تافهة لا تقاس بما كتب باللغة التركية والحروف العربية في العهد الاسلامي إذ أفاد الترك من الحضارة الاسلامية ، ودخلوا في جماعة المسلمين ، وتمكن سلطانهم بينهم

— ٣ —

والتركية العثمانية التي اختيرت لها الحروف اللاتينية أخيراً لم تعرف في تاريخها غير الحروف العربية ، ولم تدوّن إلا في ظل الحضارة الاسلامية بعد سبعة قرون من الهجرة

دخل السلاجقة في الاسلام ثم أقاموا دولتهم في القرن الرابع وفتحوا بغداد سنة ٤٤٧ ، وامتد سلطانهم على آسيا الغربية من أفغانستان إلى البحر المتوسط . ثم تقسم الخلف ميراث السلف فكان من الدول السلجوقية المتعددة دولة سلاجقة الروم وهي التي نشأت في الأناطول وما يصاقبه

وكان الأدب الفارسي في القرن الخامس قد ازدهر بجانب الأدب العربي ، فأخذ السلاجقة حضارة الاسلام باللغتين العربية والفارسية . فكانت العربية لغة العلم عند سلاجقة الروم والفارسية لغة الدواوين . وكان الأدب التركي مقصوراً على العامة ، غير مدوّن

ولما نشأت إمارة قرمان بعد منتصف القرن السابع صارت التركية أول مرة لغة الدواوين وكتبت بالحروف العربية

وقد اشتملت هذه التركية المكتوبة على كثير من الكلمات العربية والفارسية

— ٤ —

وكانت الكتابة التركية في عهدها الأول تقارب الأسلوب العربي لا تكتب فيها حروف الحركة إلا قليلا . ثم أثبتت حروف العلة والهاء للدلالة على الحركات دون تعميم . ثم انتهى الأمر في العصر الأخير إلى أن كتبت حروف الحركة في كل كلمة فصارت الكتابة التركية كالكتابة اللاتينية : كل حرف صحيح يليه حرف معتل للدلالة على الحركة

فاذا قرأنا مثلاً في ديوان سلطان ولد ابن مولانا جلال الدين الرومي وهو أول ناظم بالتركية العثمانية نجد رسم الكلمات الآتية على هذا النسق : أل (هذا) كُرُر (يرى) يقمز (لا ينظر) كُنَش (الشمس) أُلُر (يكون) أيقُدا (في القوم) أجَر (يطير) ، فاذا قرأنا في كتب المتأخرين وجدنا الرسم قد تغير على هذا النسق : أول ، گورووو ، باقماز ، گونش ، أولور ، أويغوده ، أوچار

وإذا قرأنا في الكتب التي كتبت قبل ثلاثين سنة لا نجد حروف الحركة مثبتة في كل مقطع . فاذا نظرنا في الكتب التي كتبت من بعد وجدنا اطراد حروف الحركات في مقاطع الكلمة . كانت الكلمات الآتية ترسم كما ترى :

تميز (نظيف) آرقداش (أخ) حكنيش (واسع) دها (أيضاً) گبي (مثل) قدر (مقدار) دكل (ليس) درين (عميق) گوزل (ظريف)

فصارت بعد كما يأتي :

ته ميز (الهاء علامة الفتحة الخفيفة) أرقداش ، گه نيش داها ، گيبي ، قادار ، ده كيل ، ده رين ، گوزه ل

وكان يسع الكماليين أن يسيروا على هذه السيرة واضعين حديثهم بقديمهم مبقين على ما دوّن أسلافهم ، ولكنهم آثروا ، إنفاذاً لخطتهم ، أن ينبذوا الحروف العربية ، وهي الحروف التي يكتب بها مسلمو العالم كافة ، ولفقوا هجاء من الألمانية والفرنسية والايطالية قبلغوا الكمال المطلوب ولحقوا بالسادة الأوروبيين . ولست أقول ما قاله أحد كبراء الفرس لأديب تركي يناظره في الحروف اللاتينية : « إنكم معشر الترك ليس لكم من آدابكم ما تفخرون به فآثرتم أن تسدلوا عليها ستراً من الحروف اللاتينية ولكن لنا من آدابنا ما نفخر به ونحرص على قراءته في كل جيل فلسنا نريد أن نغير كتابتنا » لست أقول هذا فقه الأدب التركي القديم ما هو جدير بالرعاية ، وقد افتن الترك في تجويد الخط حتى صاروا أئمة فيه وصار لهم من آياته ما يجدر بكل أمة أن تحرص عليه

مسألة الحروف اللاتينية ليست فيما أرى ضرورة أو إصلاحا ولكنها فتنة من فتن تقليد أوروبا التي ضربت الشرق عامة والمسلمين خاصة بالذلة والهوان ، وقد بلغ الأمر أن يرى بعض الناس أن تكتب اللغة العربية أيضاً بالحروف اللاتينية ، فاذا قلت لهم فما تصنعون بأحد عشر حرفاً من الهجاء العربي ليست في الحروف

اللاتينية ؟ قالوا نضع لها حروفاً لاتينية بالتركيب أو النقط . فياسبّة الأمم ، وعار الأجيال ، وموتى النفوس ، لماذا تجعلون من أنفسكم واضعين مخترعين في حروف اللاتينية ، ولا تكملون ما في حروفكم من نقص ، وتصلحون ما بها من عيب ؟ جرى الجدال بيني وبين واحد منهم فكان منه الجوار الآتي :

قلت : كيف تكتب ، خاشعاً وخاضعاً ، بالحروف اللاتينية ؟

قال هكذا : Khashi و Khadi فأركب K ، H للدلالة على الخاء ، و S ، H للشين وأضع مدا على A وأدل على العين بالحرف i مفصولاً عما قبله بشولة كما يفعل المستشرقون

قلت فلماذا كل هذا العناء ؟ لقد اضطررت أن تنقط وتشكل في الحروف اللاتينية ، أترى هذا أيسر وأبين من خاشع وخاضع ، قال : لا ، ولكن الكلمتين بالخط العربي خاليتان من حروف الحركة

قلت : فضع كسرة تحت الشين والضاد . وهذا حسبك ، بل لست في حاجة إلى هذه الكسرة فوزن الكلمة يعين حركاتها . قال هذا صحيح في هذا المثال ، فما بال الكلمات الأخرى . قلت : صدقت فهلمّ نتناول الموضوع على عمومه

ـ ماذا تنقمون من الكتابة العربية ؟

ـ ننقم منها أنها كتابة لا تبين عن الألفاظ ، فهذه الصورة « حسن » تقرأ حَسَن ، وحُسْن ، وحِسْن ، وحَسْن ، وحُسِّن . . . الخ

ـ قد كانت كتابتنا أول عهدها غير معجمة ولا مشكوله ، مثلاً كانت الجيم والحاء والخاء ترسم بصورة واحدة فأعجم السلف الحروف فامتاز بعضها من بعض ، ثم وجدوا الحرف الواحد في أكثر حالاته مبهم الحركة فشكلوا الحروف فتبينت الحركات ، واستبانت الألفاظ ، وكان للحروف صور غير صورها الحاضرة ، ما زال بها الاختراع ، والتجميل والتجويد حتى بلغت جمالها الحاضر ، وتعددت الخطوط ، وجعل لكل مقصد ضرب يوافيه ، فكان خط الثلث والنسخ والرقعة وغيرها . فإن كنتم يا رجال القرن العشرين أحياء قادرين على الابداع ، أبية أنفس من المحاكاة ، وإن تكن عقولكم غير سقيمة ، وقرائحكم غير عقيمة ، فانظروا في كتابتكم ، فان رأيتم عيبا فأصلحوه ، وإن أنتم نقصاً فأكملوه ، ولا تكونوا في عصور العلم ضلالاً ، وفي نور القرن العشرين ظلالاً ، أدخلوا في الكتابة حروف الحركة إن شئتم ، أو اعملوا غير ذلك إن استحسنتم ، فأما أن تقولوا كتبت أوربا فنكتب مثلها فذلك ضلال العقول ، وهوان النفوس ، والموت الذي لا يستره باطن الأرض

ثم لا تنس يا أخي أن اللغة العربية لغة أوزان وصيغ ، فليست كل كلماتها في حاجة إلى الشكل ، ولو اتسع المجال لأبنت لك أن الكاتب العربي يستطيع أن يكتب سطوراً لا يحتاج فيها إلا إلى شكلات قليلة ، وقد ضربت مثلاً من هذا في مقدمة الشاهنامه

ـ هب ما قلت صواباً ، فماذا ترى في شكاوى أصحاب المطابع من كثرة صور الحروف العربية : للحرف صورة في أول الكلمة وأخرى في وسطها وثالثة في آخرها ، على حين لا يرى الطابع الأوربي أمامه للحرف إلا صورة واحدة

ـ بل صورتين صغيرة وكبيرة

ـ أجل وهذه ميزة أخرى للحروف اللاتينية

ـ هذه الشكاوى هي شكاوى أصحاب المال من كثرة العمال ؛ كل صاحب مطبعة يود أن يديرها عامل واحد ، ليأخذ كثيراً ويعطي قليلاً . وأما القارئ فسيان عنده أن يكون الذين هيأوا الجريدة خمسة عمال أو مائة ، ثم أخبرني : ما الذي جعل للحروف اللاتينية هذه الميزة ؟

ـ صور هذه الحروف ، ثم فصل بعضها من بعض

ـ قد كانت الحروف اللاتينية كلها موصولة ولا تزال توصل في كتابة اليد ، فلما كانت المطابع استحسن الأوربيون أن يفصلوا بعضها من بعض ، فما الذي يمنعكم أيها المقلدون أن تفصلوا حروفكم فلا يكون للحرف في الطبعة إلا صورة واحدة ؟

ـ هذا يبدو لي صواباً ولكنه عجيب غريب

ـ أعجب منه أن تفكر في كتابة لغتنا بالحروف اللاتينية . قد هانت علينا نفوسنا حتى صار التقليد يسيراً قريباً ، والاختراع مهما قلّ عجيباً غريباً

ـ لا تنس أن العلوم والمخترعات قربت بين الأمم وطويت المسافات بين أطراف الأرض . والأمم صائرة إلى التوحد فلماذا لا تكتب لغات الأمم كلها بالحروف اللاتينية ؟

ـ أجل قرّبت العلوم والمخترعات بين الأمم ، ولكن أوربا لا تعرف الأخوة بين الناس ، ولا تزال تفرّق بينهم بأتفه الأشياء وهي الألوان . والتوحيد الذي تريده أوربا أن تكون هي آكلة

ونحن ما كولين . وهذا حديث يضيق عنه مقامنا الآن . وبعد فلماذا يكون توحيد الكتابة بالحروف اللاتينية ولا يكون بالحروف العربية ؟ ان أردت أن تمتحن صدق الداعين إلى التوحيد فادعهم إلى استعمال الحروف العربية فستبلغ بهم الكبرياء والازدراء والسخرية والعجب ألا يجيبوك بكلمة . ولن يكون ذلك لما عرفوا من فضل حروفهم على حروفنا ، بل لأن هذه حروفهم وتلك حروفنا . وسيشترك فى السخرية من لم ير الحروف العربية قط . ثم هل اتفق الأوربيون على الكتابة بحروف واحدة ؟ وهل استعملوا الحروف التى اتفقوا عليها بأسلوب واحد ؟ أذكر أنه منذ ثلاث سنين جاء إلى أستاذ كبير فى الجامعة المصرية كتاب من جماعة فى أوربا يدعونه إلى العمل معهم على تعميم الحروف اللاتينية فى العالم ، فسألنى رأيى فيما يجيبهم به فقلت ان كان لابد أن تجيب فاكتب إليهم أن ابدأوا بكتاباتكم فوحدوها فاذا صار الروسى واليونانى والألمانى والفرنسى والانكليزى والاسبانى الخ يكتبون بحروف واحدة ، وأجمعوا فى كتابة هذه الحروف على نمط واحد فاكتبوا إلينا لنفكر فى الأمر

وبعد ، فاللغات يا أخى مهما أحكمت كتابتها ، لا تؤخذ من الكتب وحدها بل لابد لها من التلقين . تعرف الكلمة بالسماع ثم تدل الكتابة عليها دلالة تامة أو ناقصة . وكثيراً ما تكون الحروف كالرموز أو العلامات يلمحها الانسان فيعرف ما وراءها من لفظ قبل أن يكمل قراءتها ، ويدرك اللفظ من صورة الحروف مجتمعة بل كأنه يفهم المعانى من النقوش دون توسط الألفاظ . وإذا أسرع القارئ سلط عينيه على المكتوب وقصّر لسانه عن مجاراة عينيه ، ثم يا أخى هل بلغت الحروف اللاتينية التى فتنتم بها درجة الكمال ، وبرئت من العيوب ؟ ألست ترى الصوت الواحد تدل عليه حروف عدة فصوت الكاف تدل عليه C ، k ، q ، وأخرى س ، و s يكون س حيناً وحيناً ز وهلم جرا

والكتابة الفرنسية ، وهى أدق الكتابات الأوربية ، فيها عيوب كثيرة فاللفظ الواحد أو الألفاظ المتحدة فى الصوت تكتب بصورة مختلفة مثل palais و pose, palet و pot, pause و pait, pean و Choud, Chaux و Crét, Craie . فالصوت وحده لا يدل على رسم الكلمة . وكم فى الفرنسية من حروف تكتب ولا تلفظ أحياناً كما ترى فى الكلمات السابقة

وأنت تعرف الكتابة الانكليزية ، ودلالتها على الألفاظ بالجملة لا التفصيل ، وكم من حرف فيها يلفظ ولا يكتب وآخر يكتب ولا يلفظ وحسبك مثل daughter و night laugh, nerghbour wright . ولو قرأ قارئ الكلمات الانكليزية كما تدل عليها حروفها مافهم عنه أحد ، وقل أن تسأل رجلاً أو صبياً انكليزياً عن اسمه أو اسم شارع إلا أتبع الاسم بهجائه علماً بأن الصوت لا يدل على الحروف والامبراطورية الانكليزية ، مع هذا ، لم تضمحل بهذه الكتابة ، والأساطيل البريطانية لم تصطدم بهذه الحروف وما رأيت مصرياً من العيّابين الطعّانين فى الحروف العربية جرؤ مرة على عيب الاملاء الانكليزى أو تنبه إلى عيوبه . وذلك بأن الحروف العربية لا تحميها امبراطورية ولا أساطيل ، نعوذ بالله من ضعف الهمم ، وذل الأمم

وإن للحروف العربية لمزايا عظيمة فهى أيسر كتابة . لا تملى على صبيّ كلمة فيخطئ كتابتها إلا الكلمات المهموزة . وهى كذلك أخصر رسماً يستطيع كاتبها أن يسابر خطيباً أو مدرساً فيكتب كل ما يقول ، وهى فى جملتها أوضح من كتابة اليد فى اللغات الأوربية . قال لى مستشرق ألمانى كبير قد أتقن اللغات العربية والفارسية والتركية ، وحذق كثيراً من لغات أوروبا : « ما أشكل علىّ قط قراءة رسالة عربية وقد أشكل على وعلى غيرى مرات كثيرة قراءة رسائل ألمانية »

هذا إلى ملاءمة الكتابة العربية للعين . قال لى طبيب كبير من أطباء العيون : إن الحروف اللاتينية بكثرة زواياها أشق على البصر من الحروف العربية

إن مجال القول يا صاحبى واسع . وما بكم صعوبة الحروف العربية ، ولكن الغرام بمتابعة أوربا ، والخجل من التمسك بما أورثكم آباؤكم . ما بكم علة الحروف العربية ولكن علل الذلة والمهانة ، واحتقار أنفسكم وتعظيم غيركم . إن المريض يكثر التحدث عن صحته ، ويكثر اتهام الأطعمة والأشربة ، كلما أحس السقم ظن أن الماء الذى شربه قد أضرّه ، أو أن الطعام الذى طعمه لم يلائمه . فكذلك أنتم تحملون علل أنفسكم على اللغة أو الكتابة أو غيرها وإنما الداء الدوىّ فى أنفسكم ، والعلة القاتلة فى سرائركم

(له بقية) عبد الوهاب عزام